قصة

الليل والورد

محمد حسن الحربي

يغرق هذا الخارج في موته الأسود، وأراني معك وحدك، في الداخل، شمس نهار. يغيب هذا الخارج بكله عن قلبي وعيني، يقذفني بكلي إلى كلي، فيلملم بعضي بعضي، ليتماسك في وجه الوحدة الأليمة، في غرفة تبدو قبراً مختلفاً عن كل القبور، متميزاً عن كل القبور، يأخذ اختلافه وتميزه من اختلاف ألمي عن آلام الناس، وتميز حزني عن أحزان المخلوقات كلها في هذا الكون الفسيح، الضيق، المقبرة؛ هذا الكون المملوء بالأحياء، الخالي من الأحياء، الفارغ من أي حياة.

معك في الداخل شمس نهار عندما تبتلعني غرفتي من هذا الخارج، هو يغرق في ليله الميت، وأنا يشيعني هذا السكون المطبق، المخيف من حولي. إلى موتي البارد داخل هذي الجدران الأربعة، داخل هذا الجسد. تبترد روحي فتصقع مثل عصفور في ليل شتاء مطير؛ لا أحد هنا، لا أحد هناك، ولا أحد في أي مكان، إلا أنت تجعلينني في الداخل شمس نهار. تستمعين إليّ كأجمل امرأة صديقة التقيتها في حياتي القصيرة، الطويلة، الطويلة. أنت سيدة جليلة مثلي، بإشارة من طرفك تخرج الشمس من الأرض على السماء، وبإشارة يغوص القمر على الأسماك في البحر. كم تؤانسينني أيتها السيدة الجليلة، كم تأنسك روحي الباردة المرتجفة. كل ليلة، عندما التقيك، يتوقف هذا الشخب المؤلم في قلبي وتنفرش ضلوعي. أنت، أيتها السيدة الجليلة، أيتها الجليلة، وحدك أحبك. وحدك الباقية على حبي. أنت الجليلة الوفية، البديعة اللطيفة، رائعة الجمال، فائقة الشفافية، نقية القلب. سامية الروح. أنت، أيتها السيدة الجليلة، الوفية، البديعة اللطيفة، الرائعة الشفيفة، النقية القلب، العالية الروح. أنت وحدك حبي والآخرون كرهي. وحدك جنتي والآخرون جحيمي. أنت اختصار الوجود في وجه قمري وديع. اختزال الحياة في مساحة يمتزج فيها أبيض بأصفر رائق. أيتها السيدة الجليلة، عالية المقام، ما أجملك. كم أنت جميلة مثلي. أي سر في عينيك الواسعتين. أي طعم حلو تشربته شفتاك المضمختان بأحمر عليل. كم هو مرهف قدك، يانع مثل نضوج جسدي الفائر، مهيب يختصر المدى ويحسر العين عما هو موجود سواه. أيتها السيدة النضيرة، أي رحم شكلك؟ من أين ترى بدؤك، أين منتهاك؟

بلا حركة تجسدين فعلاً.

بلا كلمة تكتبين قصيدة.

بلا ماء طوفانك.

. . . وتضيع الجهات ساعة بدء الرحلة معك، ساعة بدء الرحلة معي.

لا أدري كيف أبدأ حديثي معك، فأنا امرأة مثلك أيتها الجليلة؟ تعالي، تعالي أحدثك عن نفسي. أراني مدفوعة للكلام إليك: في داخلي، أيتها السيدة النضيرة، انشراخات رهيبة تصدأ لها نفسي، ولا أكاد أفكر معها في هذا الوجود، أصير عمياء لا أراه. شروخ، يا سيدتي الجليلة، أحسها تتوالى في حدوثها ولا أطيق احتمالها، إنها، إنها كما انهدمات قوية لها دوي يضج لها رأسي، وأفقد معها اذني فلا أسمع. أخاف منها على نفسي كثيراً. أنا لا أعرف مصدرها. إني أعيش تأزماً لا أقدر على الحكي عنه أو فيه إلى أي أحد إلاك، الوحيدة في عالمي. إنه يرتفع شيئاً فشيئاً، يصل ذروته.

أيتها السيدة الجليلة المقام، صار مؤكداً أني سأدفع ثمن الذي يجري مرضاً لا يفيد فيه علاج، وربما موتاً مفاجئاً.

كنت، قبل بدء الانهدامات، أرقب صحتي بافراط؛ أتحرك كثيراً، اتغذى، وأنام طويلاً، صارت المسألة الآن صعبة علي. تدابرنا أنا ومزاج الاقبال على الحياة التي كانت يوماً ممتلئة، صرت، كما ترين، أشكك بجدوى الحياة، بأن لي هدفاً يستحق أن أعتني له بنفسي، ولمَ أهتم؟

أنا لا أتهم نفسي بالكذب ظلماً؛ أراني مظلومة بالذي يحدث لي: هل لديك تفسير لهذا؟ كم الذي يحدث لي قاس إلى حد الموت. الموت ربما أهون علي منه. اكتشف، أيتها الجليلة، أني اكتشف، يوماً بعد يوم، أني لست قوية لأتخذ أي قرار، أي قرار أفصل فيه بين عاطفتي ومصلحتي في هذي الحياة. أسألك، فأنت مجربة: ترى هل يندفع أحدنا إلى شيء دون أن يجد فيه إشباعاً ما؟.

دائماً، نعم، دائماً، صدقيني أيتها العالية الروح، تختلط علي هذي المسألة تجاه أمور تنهض أمامي هكذا فجأة بلا مقدمات. الأمر المحزن الآخر، أيتها الصديقة، أن الانسان، وأنت مثلي إنسان، يتهيب من نشر خباياه المفجعة على شفاه الناس. الناس أغلبهم يفتقد الميل إلى المشاركة، هؤلاء، لو تدرين، جحيم لا يطاق، إنهم لو عرفوا ما أريده، ما أحدث نفسي به، فلن يصغوا إلي بحيادية. صدقيني أنهم لا يحبون أمثالنا، أنا وأنت، إلا إذ كنا على علاقة سيئة بالحزن الضروري. يا صديقتي الوفية الحقيقة أقولها لك؛ إنهم كانوا ينظرون إليّ كمزيج من الليل والورد، وكلما كنت أقترب منهم بمزيجي هذا، يقولون (إن القمر يقترب) لكنهم أحرقوا أشياء كثيرة داخلي تصعقني إن تذكرتها. الآن. كنت ألتذ لافتتانهم بي، لأني كنت أحسب أن هذا الافتتان قوة تزيد فيهم حب الجمال، لكن، وهذا ما يفجعني، ولد عقابي من رحم لذتي الصغيرة هذه، وعلمت، بعد زمن، أن حبهم لي هو تكشيرة انتهت، يا سيدتي، انتهت... بتثاؤب مغرق في الاملال... إنه فصل آخر من المهزلة هذي التي ابتسم لها ألماً.

أنا، وقد لا تلاحظينه، دائمة البسمة، لأني دائماً أراني أمام مهزلة بشرية لا تكاد تنتهي فصولها أبداً. دائماً أراهم يضحكون، لكن بعد سنوات وسنوات، اكتشفت أنهم يضحكون من صعوبة البكاء...

أمري غريب، أليس كذلك؟ لكن الأغرب هو أمرك أنت. تعالي، قولي لي: أليس لك فم ولسان وشفتان، مثلهم؟ أليس لك قلب لا يتسع لكلام، وصدر لا ينغلق على بوح؟

أنا أدري أنك مثلي؟ لك قدرة على فعل ما أفعله، لكنك لا تودين عمل شيء غير سماع ما أقوله، غير ما أشكو لك منه، لأنك، ببساطة، لا تريدين أن تكوني جحيماً مثلهم، مثل هذا الخارج الهارب مني بصلفه وعناده، بعماه وغطرسته، الخائفة منه بضعفي على مواجهته، بكرهي له كله بلا تفاصيل... وهل مهمة التفاصيل لجسم مكروه من رأسه (السمكة تفسد من رأسها).

بصمتك الموشك الكلام، بوجهك الحاني، وبعينيك البريئتين مثل السماء، صرت سيدتي القريبة من قلبي، صرت الحبيبة، مكانك إلى جانبي هنا، سريرك عند سريري، تطلين علي بصمت مثل كلام جميل، وبصمت ترقبين حواراتي الجسدية في ليلي العجيب، ونهاري المنفلت من حسبة الزمن.

آآآآه يا سيدتي، آه. أنا أبكي بدمع أكثر ملوحة من دمع أي أحد. أنا أتألم من قرن كامل، من قرن، منذ الآه الأولى التي خرجت من شفتين لبشر مثلنا، أنا وأنت، آه يا سيدتي، آه. أنا لا أدري عما أتحدث، أثقلت عليك... أثقلت. هل تسمّين حديثي هذا هذياناً، عبثاً؛ لا بأس، فليكن، سمّيه ما شئت، فأنا لن أتوقف عن الكلام، ولم أتوقف عنه؟ أنا أحب الحياة، أنا مخلوقة لأحيا، انظري إلى هذا الجسد المتماسك، هاه، أنظري... انظري، لا أحد هنا غيرك، دعيني أتفحصه معك وأنت احكمي، فأنا أثق بكل ما تقولينه. لحظة واحدة من فضلك قبل أن تتكلمي، لحظة واحدة كي ألقي عني هذي الملابس الهم. انظري... ما رأيك؟ قولي أيتها الجليلة، أرجوك ماذا ترين؟ حتى نفسي لم تصدأ، عواطفي لم تصدأ.

أصمت الآن لأستمع إليك، تكلمي أيتها الطيبة القلب، الشفيفة، يا صديقتي. ... ...

أصمت الآن كي تتكلمي، تكلّمي، قولي الحقيقة مثلما قلتها أنا قبل قليل، قوليها ولا تتحرجي من شيء.

. . . . . .

لا، لم أنغلق على نفسي، ولم أنطو. لم يبتلعني الحزن في جوفه ويلفني بدفئه البارد. أنا أوافقك (مثل كهف في جبل ثلج هو جوف الحزن الكبير) لكن قلبي ليس قلب راهب، أيتها السيدة الجليلة، ليقبل بالتذاذ أن يصير ذبيحاً. وإلى متى الانتظار؟ أو تريدين أن أجلس حياتي كلها أغزل للصبر ثوباً، أو ليس غير الدموع أمامنا عندما تنكسر الأحلام؟ لم أترك الحزن يغضني ويفعل بي ما يشاء بعد أن فعل الأشتهاء العنيف ما يشاء؟ صحيح أن لذاك يومه الذي اغتيل فجأة، لكني، أيتها الجليلة، لن أدع نهار ما بعد الفجاءة المفجعة ينال مني. كيف تريدينني روحاً تعبة بعد أن كنت سيدة التعبير؟

كنت أسبر اختلاجات الناس واحساساتها، ألتقط كل ما في نفس أحدهم: نأمة حزن، رغبة انتشاء أدخلها ارتجافها العنيف. وجوههم كانت تنبئني بكل ذلك فأستجيب لمن أشاء وألتذ. الآن، الآن، الآن أيتها السيدة الجليلة، الآن أنت وليس غيرك تقولين ما يجتاحني بشميمه المميت من كلام، تريدين منح هذي الرائحة القاتلة ثباتاً، وحدة، لتدمير البقية الباقية من كياني.

هل أنت مثلهم جحيماً، جحيماً في قربي، بجانبي، وسط أشيائي الصغيرة الحميمة، بيني وبين جدران غرفتي.

. . . . . .

تعالي لأقبلك، تعالي لنبقى صديقتين جليلتين، فلولاك أيتها المرأة الشفيفة لمتّ من زمن.